مُقارَبات

تَحْلِيلُ حَالَةٍ

٢٠٢٦

١ نيسان

كَيْفَ تَنْتَصِرُ القِيَادَةُ الشَّاهِدَةُ وَالشَّهِيْدَةُ

شادي علي

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

تَحْلِيلُ حَالَةٍ: كَيْفَ تَنْتَصِرُ القِيَادَةُ الشَّاهِدَةُ وَالشَّهِيْدَةُ

شادي علي

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

©جميع الحقوق محفوظة للمركز

تَحْلِيلُ حَالَةٍ:
كَيْفَ تَنْتَصِرُ القِيَادَةُ الشَّاهِدَةُ وَالشَّهِيْدَةُ

شادي علي

شـكّل مفهوما "القيادة" (المتمثّلة في الإمامـة والولاية والمرجعيَّة) و"الشهادة" (المتمثّلة في التضحية الواعية والفداء الاستراتيجي) أساس الهويَّة الجمعيَّة للمجتمعات الشـيعيَّة المعاصرة؛ حيث تتشابك القيادة مع الشهادة في هذا الفكر لتشكّلا نسقًا معرفيًّا وحركيًّا متكاملاً؛ فالقيادة تمثّل الهيـكل التنظيمي، والبوصلة التشريعيَّـة، والمظلَّة الشرعيَّة التي توجِّه حركة المجتمع وتضبط إيقاعه، بينما تمثّل الشهادة الوقود الروحي، والأيديولوجـي، والمحرّك العاطفي الذي يضمـن ديمومة هذه الحركة وقدرتها على مقاومـة التحدِّيات والانكسـارات الداخليَّة والخارجيَّة، وتأسيس شرعيَّة السلطة، وتعبئة الجماهير نحو الفعل السياسي المقاوم.

يقدّم (السـيد محمد باقر الصـدر) في نظريَّته "خلافة الأُمَّة وشـهادة

الأنبياء عليهم السلام" التي أسَّســت لمفهوم "القيادة الشــاهدة" تنظـيراً بأنَّ إدارة شــؤون المجتمع تقع بالدرجــة الأولى على عاتق الأُمَّــة الواعية؛ حيث يتحدَّد دور المرجعيَّة الدينيَّة (الفقيه) في ممارسة دور "الشهيد" (بمعنى الشاهد والمراقِب الأمين والموجِّه الأيديولوجي) الذي يشرف على التزام الأُمَّــة بخطِّ الخلافة الإلهيَّة، ويصحِّح مســارها إذا انحرفت، في ســياق استراتيجي وسعي إنساني حثيث لهدف حضاري نهائي وهو إقامة دولة العدل الإلهي؛ حيث يبعث هذا الفهم العملي في الإنسان روح المسؤوليَّة التاريخيَّة، ويفجِّر طاقاته الكامنة للتمهيد لظهور المَهدي عجل الله فرجه الشريف عبر العمل الميداني، والتأطير السياسي، والتنظيم المؤسَّسي.

وقد جسَّد (الشهيد الصدر) نظريَّته هذه على أرض الواقع؛ فلم يكتفِ بالتنظير الأكاديمي والفقهي بل ربط القيادة بالشــهادة فعليًّا حين رفض الخضــوع لنظام حزب البعث في العراق، وأعلن انحيازه المطلق للثورة الإســلاميَّة في إيران. وفي رســائله المشــهورة لـ (الإمام الخميني) بعد انتصــار الثورة، أعلن (الصدر) وضعه لــكلّ وجوده في خدمة "الوجود الكبــير" المتمثِّل في ما أســماه "المرجعيَّة القائــدة والمنقِذة". وعندما اشتدَّت المواجهة، أعلن استعداده التامّ لبذل آخر قطرة من دمه في سبيل

الأُمَّة، مخاطبًا الجماهير بأنَّ زمانه يشبه زمان الإمام الحسين عليه السلام، وأنَّ الأُمَّة بحاجة إلى تضحية وفداء عظيمين يهزَّان الضمائر الميتة. ليكون بذلك (الصدر) نموذجًا حيًّا للمرجع القائد الذي يمارس "الشهادة" بوصفها فعلاً تأسيسيًّا يحمل دلالات التغيير الجذري والمواجهة النهائيَّة مع الطغيان.

ومرة أخرى يتقدَّم الولي الفقيه الشاهد والشهيد لبذل دمه لإحياء الأُمَّة الإسلاميَّة وتوحيدها، وليعيد الحيويَّة والنشاط والإرادة لأُمَّة فقدت بوصلتها، أو استكانت للذل، أو عانت من "الفقر المعنوي"، ومرَّة أخرى أيضًا، تعلن النجف الواجب الكفائي في الوقوف الميداني مع نظام الجمهوريَّة الإسلاميَّة متحدِّية كلّ إكراهات الواقع السياسي؛ لأنَّ هذه الشهادة، كما يذهب (الشهيد المرتضى مطهّري)، لا يُنظر إليها باعتبارها قتلاً في صراع سياسي عابر أو فتنة تاريخيَّة بل "مواجهة واعية، ومستهدفة، ومقاومة شجاعة لغاية مقدَّسة"؛ فالشهداء، حسب تعبير (مطهّري)، هم شموع المجتمع البشري التي تحترق لتضيء العالم في غياهب ظلمات الاستبداد ومحاولات الاستعباد، حتى أنَّ الروح السامية والنيَّة الطاهرة للشهيد تنعكس على جسده ودمه وثيابه، فيُدفن الشهيد

الذي يُقتل في ساحة المعركة بثيابه ودمائه دون الحاجة إلى التغسيل أو التكفين التقليدي، هذا الاستثناء الفقهي هو دلالة رمزيَّة تعني أنَّ تضحية الشـهيد بوجوده المادي من أجل القِيم الإنسـانيَّة وحقَّانيَّة الإسـلام قد طهَّرته بالكامل.

أسـهمت ثقافة الشهادة والقيادة الشـهيدة في صياغة هويَّة ومفاهيم عقديَّة أبرزها مفهوم "الشهيد الحي" أو "عاشق الشهادة"؛ حيث الشهادة ليست خسارة بشريَّة أو فعلاً إنسانيًّا بحتًا بل "رزقًا إلهيًّا" ووسامَ اصطفاء ومكرمة يمنحه الله من يشاء من عباده المخلصين، هذه النظرة الاستثنائيَّة أحدثـت تحوّلاً جذريًّا في نفسـيَّة المقاتل الشـيعي؛ إذ أعادت تعريف الموت الجسـدي في سـاحة المعركة إلى كونه مجـرَّد انتقال إلى مرتبة أسمى وحياة أبديَّة، ما يحرِّر الفرد من الغريزة الفطريَّة للخوف من الموت والفنـاء، ويخلق قوَّة عسـكريَّة غير تقليديَّة يصعب ردعها بالترسـانات والأسـلحة الماديَّـة المتقدِّمة، وهنا يـبرز التناقض بـين "لاهوت الدم والشـهادة" (المثاليَّة الثوريَّة والجهاديَّة)، و"لاهوت القانون والتشريع" (براغماتيَّة بنـاء الدولة، والتعايش، واحترام الحـدود الدوليَّة)؛ فالنظرة الشـيعيَّة التي تعتبر الشهيد "شاهدًا كونيًّا وتاريخيًّا" على فساد التاريخ،

وحاملاً لرسالة تغيير ثوريَّة ومستدامة، يبرز كيف أنَّ الفروقات اللاهوتيَّة والتاريخيَّة العميقة قادرة على رسم مسارات جيوسياسيَّة متباينة وتشكيل سياسات دول؛ فبينما تعتمد الدول الحديثة وظيفيًّا على احتكار أدوات العنف لفرض القانون والنظام الداخلي، تعتمد حركات المقاومة والدول العقديَّة على مأسسة "ثقافة الشهادة" بوصفها أداة ضغط استراتيجيَّة مكافئة للنقص في الترسانات العسكريَّة التقليديَّة، ما يحدث تغييراً جذريًّا في مفاهيم الحروب غير المتكافئة، وإعادة تعريف آليَّات الردع وتوازن الرعب في العلاقات الدوليَّة.

إنَّ الشهادة، بوصفها أيديولوجيا تعبويَّة ومبدأ تأسيسيًّا في الاجتماعي السياسي والديني الشيعي، تشكِّل العمود الفقري للمشروع الحضاري والسياسي، فقراءة واقعة كربلاء بوصفها حدثًا ثوريًّا، وإصلاحيًّا، يمنح القيادة الدينيَّة-السياسيَّة المعاصرة أداة نفسيَّة ومجتمعيَّة جبّارة لإنتاج الشرعيَّة، وتعبئة الجماهير، وتجاوز العقبات الماديَّة في الحروب، وهنا لا يصبح الدمُ نهايةَ الحياة بل ذخرًا رمزيًّا مقدَّسًا يُستثمر، ويُستدعى، ويُعاد تدويره لإدامة حيويَّة المجتمع وثبات أركان المسيرة الحضاريَّة، مقدّمًا عقد اجتماعي رديف غير مكتوب بين القيادة والجماهير؛ حيث

تتعهَّد القيادة بالدفاع بالدم عن المشروع العقدي والجيوسـياسي، وفي المقابل يقدّم الجماهـير قدرة هائلة على تحمُّـل العقوبات والحروب الطويلة، وبين هذا وذاك، يكتسب المشروع الحضاري القدرة على العبور والانتشـار العابر للحدود، وهي قدرة لا تعتمد فقـط على الإمكانيَّات العسـكريَّة أو القدرات الماليَّة والتقنية بل ترتكز بشـكل أساس وعميق على القدرة المستمرَّة على دمج جاذبيَّة القيادة الدينيَّة بقدسيَّة الشهادة، وصياغة حاضر الأُمَّة ومستقبلها من خلال الاستدعاء الدائم، والنشط، والذكي للماضي بكلّ ثقله الرمزي والخُلُقيّ.

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد